جسر الشعر

بين محمد حسين هيثم وجيلي عبد الرحمن

محمد حسين هيثم

هيثم وجد في الشاعر جيلي عبدالرحمن صورته في الدماثة والحياء والبساطة والنقاء والنسك الصوفي الزاهد

هل ترحل البحار والجبال ؟!

هذا البدوي الزاخر بالحضارة والحضور
كم كان حيياً وخلوقاً. كم كان فذ

مفتتح (١)

إلى ابنتي وطالبتي - أم هند وهيثم وهوزن - لقد كنت شريكة فصل الدراسة للراحل العظيم وكنت شريكة حياته كأسمى ما تكون الزوجة والأم في فصل الحياة القليلة " لرجل كثير " أرجو بهذا أن أشارككم أيها الأعزاء عمق الشعور بالفقد الجلل.

والدكم. د. عبد الشافي صديق

مفتتح (٢)

خبا ضوؤه.
قبل أن يولد الفجر
من رحم الليل،
وهو الذي يكره الليل
يكره عتمته
والظلام الذي يتوغل
يدعو إلى عزلة الكائنات
ويدنو ليرسم لون عباءته
في القصيدة.
" عبد العزيز المقالح : في رثاء هيثم "

مفتتح (٣)

أيها الموت
يا أرعن يتهجس أقدامه في الظلام
إن القصيدة
لما تزل ضوعة الحبر طازجة
فوق أثوابها
" وهيثم " غاب قليلاً
وسوف يعود ليكملها
فانتح جانبا.
د. علي حداد في رثاء هيثم.

أ.د عبدالشافي صديق

أحب هيثم أستاذه جيلي، ولعل هيثم وجد في شيخه صورته، وأكاد أجزم أن هيثما لو تقدمت به السن كشيخه لانطبقت صفاته على شيخه انطباق الحافر على الحافر. ذات الدماثة؛ ذات الحياء، ذات البساطة والنقاء، وذات النسك الصوفي الزاهد.

وعندما أرغمت الروح القلقلة لجيلي سيدها على الارتحال إلى بلد عربي آخر، وترك عدن التي أحبها إلى جامعة وهران بالجزائر.

تذكر هيثم شيخه في لحظة وجد صوفية فكتب قصيدته " هموم الشيخ الجليل "، والتي صدرها مفتتحه :- " إلى أستاذي القدير الشاعر الدكتور جيلي عبد الرحمن، سبتمبر ١٩٨١م. " :-

هكذا يمضي بك الوجد
هكذا يمضي بك الوعد
هكذا يمضي بك العمر
إلى حجر وحيد
هكذا تمضي بك الطعنات موتاً
ثم موتاً
ثم موتاً
ثم بدءاً من جديد.

وقبل أن ينصرم نصف عقد على هذه الكلمات تمكن الفشل الكلوي من الشاعر جيلي إلى أن مضى به إلى رحاب الله في أحد مشافي القاهرة. وأنطفأ قلب الشيخ وبقى قلب حواريه عليلا.

أرأيتم كيف أن الموت دائم الحضور، وشاخص رئيسي لدى شاعرنا، تراه قد أكده ثلاثاً وهو يناجي شيخه مؤكداً : موتاً ثم موتاً ثم موتاً .

لا بأس فالعرب مولعون بالتثليث : القسم عندهم مثلث، والطلاق عندهم مثلث، واللثم عندهم مثلث، والوعيد عندهم مثلث والوعد مثله. أمر منطقي فالحياة مثلثة الأضلاع حمل وميلاد وموت.. طفولة، ويفاعة وهرم.

معذرة.. إن ما رددده هيثم ثلاثاً عن الموت / في عنوان شيخه وفي مواقع أخرى كثيرة / قد استغرقني تماما.

علامَ اهتمام هيثمنا المستدام بظاهرة الموت السرمدية؟

الموت ومثوله الظاهر والمستتر عند هيثم

في البدء آمل أن يعذرني القارئ الكريم إذ لا أنا بالشاعر، ولا أنا بناقد للشعر. كل ما استطعت أن أدركه - بعد لأي - عن ذاتي هو أنها ذات عاشقة للشعر ومتلقية له حد التبتل؛ ومضيافة له حد الكرم.

وعليه اسمحوا لهذه الذات أن تفصح عما أحسته من دون احتراف.

ومن تلك المدركات عن شاعرنا الرائع يشدني المثول المستدام للموت في بدائع هيثم إذ ترد تارة تصريحاً وتارة تلميحاً.

وأحسب أن هيثماً كان يدرك بإمعان أن الموت يخطو معه في مواكبه، في حله وترحاله، وهو كمسلم مؤمن يدرك أن الموت يمضي أمامه فيراه، ويمضي خلفه ويحسه.

كان مؤمناً أن ما لا يراه أمامه أو خلفه هو - لا شك - ليس بغائب وإنما في مكان ما في الجوار.

ولهذا تكاد تحس بأنه يصادق الموت، بل وكأنك إزاء كل منهما قد صادق الآخر ومضيا معاً في درب الحيلة القصير، وكل منهما يدركه، ولكن لم ينع أي منهما الآخر؛ فلا هيثم سعى لرثاء الموت، ولا الموت عمل على رثاء هيثم؛ فالموت لا يرثي فرائسه.

لذا قام هيثم برثاء نفسه في قصيدته " مرثية الفتى " " م " صادحا :

ها أنت تخرج ملتحفاً جلدك المأتمي
منتعلاً قلبك الآن
محتشداً في القطار الأخير
وكنت تحاول عشقاً
فتبكي
وكنت تحاول موتاً
فتبكي.

ذلك ولأن الموت عصي عارم، ولأنه حق، ولأنه يتلبسه ويسكنه تجد الشاعر يشير إليه في السيل والبحر والحريق وهي أعتى أدوات الموت عسفاً.

ففي قصيدته " انهمارات " ومفتتحها (في رثاء الرجل الطيب أحمد عجاف الذي مضى بعيداً مع السيل).

السيل؛ وليد الطبيعة العاق الشقي، المنحدر الذي لا يلوي على شيء سوى الدهم وفيه الموت :

على ساحلٍ من بروق نشرت مداك
وآويت يوماً من المطر المستتب
ينتهي في انحدار السواقي
إلى خطأ الموت

لا هيثم سعى لرثاء الموت ولا الموت عمل على رثاء هيثم

وهذه الفجاءة
تشعل فينا الهباء
وتطلقنا في مدار كليل
بارقاً من نثار الفجيعة
كوكباً من نثار الذهول

ولا مراء أن السيل مداهم ومفجع ومميت، بل وله صنو آخر بذات الصفات إذ نرى الشاعر يبرز حيلته المنهارة أمام سطوة وقسوة البحر في مقطعه " نثرية الخراب " في ذات القصيدة ليخبرنا :-

كيف أحادث البحر؟
وأوله جثة، وبينهما سلطة الماء، وامرأة لم تنم، وطائرة تلعق الزبد المنتفخ.
كيف أحادث البحر؟
كيف أحادث الطمي الملحي؟ والموز السابح في مرق الموتى؟!

وفي خضم هذا الموت السائر السافر، الصاخب يبصر الشاعر رجله " الطيب أحمد عجاف الذي مضى بعيداً مع السيل "
ورأيت " عجافا " على الماء الخراب
طفلا نأى خلف الندى
طفلاً أتى قبل الندى
طفلاً تعاوده القصيدة..
تارة.....
في جمرة الطبل الخرافي الصدى
تارة
في هيئة القبر الجميل

المسحوقون أبطال الشاعر

مثل الرسل والأنبياء يبغض هيثم الطغاة والقساة. وينثر إبداعه قوتا للمسحوقين.. البسطاء، الشرفاء.. الذين يلاحقهم ظلم السلطان وسطوة الجشع.

ولذا حين يرحل هؤلاء البسطاء عن الدنيا : يجللهم هيثم بالفخار؛ ويجعل موتهم مجدا ؛ويجعل رحيلهم رحيلا نبيلا ؛ والرحيل النبيل قرين الراحل النبيل .

يتجلى هذا النبل الأشم في رائعة الشاعر :
(عبد العليم إذا مات) من ديوانه "رجل ذو قبعة ووحيد"
عبد العليم إذا مات
يموت بحرفنة
ويموت كما يحلم الموت أو يشتهي من الميتون
يموت كثيرا؛ كثيرا ويفيض من الموت
يمتد موتا من المهد شرقا
إلى الغرب من يومه المرتقب .

وعبد العليم المسحوق بطل الشاعر والنموذج الأمثل للشرف والنزاهة والنقاء والنبل والكبرياء الكرام ولذا :
عبد العليم عليم بكل أصول الضيافة
حتى إذا مات
يحمل قهوته
ويوزعها بيديه
ويعزي المعزين
لعمري .. يا لها من صورة ؛يا لها من عذوبة ؛يا له من خيال بهي ؛ وقلب فسيح نقي .

أرأيتم كم وحجم المسافة مابين قلعة هيثم وقلعة الموت ؟أرأيتم ما بينهما من الكثير الكثير الحذر؟

هما يسيران ؟أحدهما ظاهر والآخر مستتر .

ولكن ولأن الموت حق ؛وقدر محتوم وضروري كالماء والهواء يغشى الأغنياء كما يغشى الفقراء على حد سواء ؟ إلا أبطال هيثم يموتون الموت الكريم ويرحلون الرحيل الكريم بعد أن أبلوا في الدنيا بلاء حسنا ؛ ورغم قلة متاعهم فهم أغنياء بالفضائل والنفائل ؛ورغم قلتهم فهم كثر ؛ورغم ضالتهم فهم عمالقة عتاة لايحول وجودهم في السفح من أن تربت أناملهم على هامات الجبال .

الإنسان للإنسان ذئب..
أو على بعد ذئب

شيئان لا أدريهما ؛وسيجيئان تحت مظلة هذا العنوان وهما :

الـلا أدريها الأولى : مفادها :لماذا يا ترى اختار البشر الذئب من دون الكواسر والوحوش ليكون دالة للغدر والوحشية واللؤم والفظاظة والجحود؟

مع أنه __أي ذئب__ لا يختلف عن عوائل الوحوش والكواسر الأخرى مثل عائلات الأسود والنمور والضباع والدببة في شيء .

أتراه لأن الذئب هو الذي يدلف إلى مظاعن البشر فيغتال ويقتل شويهاتهم وحملانهم ونعاجهم وكافة سوائمهم الوديعة الضعيفة المسالمة البريئة ؟

ولذا الذئب (الشر) على بعد إنسان والإنسان على بعد ذئب .

واللا أدريها الثانية: :أتراه هيثم كان على دراية وعلم بالمثل الشعبي الروسي القائل :

CHELOVAIC CHELAVICU VOLK

أي "الإنسان للإنسان ذئب "؟

ولأن " الإنسان للإنسان ذئب" إذا الذئب هو أحد أدوات الموت __ذئب رديف الموت .. الإنسان على بعد "ذئب" الإنسان على بعد "موت" .

والموت __كما أسلفنا __هو المصاحب المستور لهيثم .

يمضي معه أينما مضى ؛ولأنه ذئب فلا بد له أن يغدر فالغدر طبع الذئاب وما أن يعن له الغدر ؛ غدر ولو بصاحبه.

في المسافة ما بين الشاعر والذئب

أو في المسافة ما بين الإنسان والذئب ؛أو مرادفها ما بين الإنسان والموت ... وفيه عنون الشاعر أحاسيسه في موقف محسوب فقط : " علي بعد الذئب ". ثم تحت عنوان آخر : " نار الذئب ". وعنوان ثالث" وصايا الذئب" .

ففي مسافة المكوث على بعد ذئب يؤكد هيثم كل المآلات:

كلنا عابر
والغزاة سيأتون؛
من ثغرة سوف يأتون؛
تهوي سيولهمو من أعالي الخرافة
لكننا
سوف نجمع ما سوف يطفوا هناك من جثث.

أنظروا مرة أخرى وثانية وثالثة أدوات الموت : السيل ؛النار ؛البحر ويضاف إليها هذه المرة الذئب .

وسبق أن لمسنا من الشاعر أن الموت غادر؛ وان السيل غادر ؛وأن البحر غادر ؛ والآن نرى الذئب غادرا؛

الغادرون جميعا هم رهط الموت ؛هم منجله وسيفه .فإذا ما فعلوا فعلتهم:

نجثو نلملم ما سوف يبقى
على صفحة السيل ؛
ودمعا قديما
وشيئا من القلب
يعصره ثم نفرده ثم ننشره في الهواء
ونتركه يابسا في النشيد .

وما أن اقتنص الموت ؛ عفوا ؛ الذئب فريسته هل علينا " الضبع " .ومقطع الضبع في ذات الديوان ياتي مباشرة بعد "وصايا الذئب" .

والضبع ككاسر هو وريث .الذئب نابش القبور وآكل الرفات والسعيد بالرمم؛ تبهجه الجثث المتناثرة في ساحات الوغى ؛ يعيش على الموت والموتى . وكجبان رعديد يحيا بموت الآخر:

أبداً خطواته مرتابة
أبداً يلتف على محوره مرتعدا
ويداور
ثم يناور
ثم يطوب حكمته
بهلاكات الغابة
أبداً يتصيد ما ألقته الصدفة من جيف منخذلا يغرس فيها أنيابه
وأن الصيد سجيته المنسابة .

لك الخالق ورحمته يا هيثم ؛ يا أيها المترع بالروعة كانت وستظل مآقينا غرقى بالدمع منذ رحلت من شاطئ دنيانا إلى شاطئ دنياوات أخر.

تطفر مني الدمعة أيها الخالد كلما طالعت إهداءك لي على ديوانك "رجل ذو قبعة ووحيد" .

".. أستاذي .د. عبد الشافي صديق ؛لن أنسى قط ما تعلمته على يديك ؛ولعل أهم درس هو الصرامة مع النفس والدأب؛ لكم كل محبة وتقدير (التوقيع هيثم ١٨ / ٣ / ٢٠٠١م).

ويقيني أيها الراحل المقيم :أنني أيضا تعلمت منك أن أعظم الناس قولا هم الصامتون ؛ وأن أكثرهم حركة هم الهادئون.

وأن أكثر الأسود زئيرا الخائفة "

نبذة عن عبدالشافي صديق

عميد كلية الآداب _جامعة إب

مؤرخ ومفكر سوداني ؛أترى بكتاباته الحياة الثقافية في عدن ؛منذ أن استقر بها ؛ من سنوات طوال ؛محاضرا لمادة التاريخ بجامعة عدن . حاولت أن أحصر إنتاجه ؛ ولا أخالني وفقت في هذه القائمة من الأعمال ؛ التي تمحورت حول اليمن؛ وجاءت غيضا من فيض هذا المبدع والدكتور النشيط ؛ الذي مازال عطاؤه يتدفق عبر صحافة اليمن :

١) سهيل بن عمرو نفوذه الإجتماعي وحضوره التفاوضي؛مجلة (المؤرخ العربي) عدد ٣٤ سنة ١٩٨٧م.
٢) العلاقات اليمنية الأيوبية (٥٦٩_٥٩٤ للهجرة) بحث في ندوة العلاقات اليمنية المصرية عبر التاريخ ؛ يناير ١٩٨٩م.
٣) ليس الشر في التعدد القومي اللغوي وإنما في كيفية معالجة قضاياه ..
دراسة حول الأبجدية المهرية والسقطرية ؛ صحيفة "الثوري" (عدن) ١٨ يوليو ١٩٨٧م.
٤) ندوة شبام حضور تاريخي وغياب سوسيولوجي ؛ صحيفة "الثوري" (عدن) ٢٦ مارس ١٩٨٨م.
٥) شبام حديث عن الوطنية والقومية والإسلام ؛ "الثوري" (عدن) ٢٣ ابريل ١٩٨٨م.
٦) الطابع العملي في المثل الشعبي اليمني ؛التراث (طرابلس) العدد٦؛ ١٩٨٢م.
٧) خصوصية الأدب اليمني ؛ " الثوري"_عدن ؛١٩٨٧م.
٨) الحابل والنابل في جائزة نوبل " الثوري "_(عدن) ديسمبر ١٩٧٨م.
٩) اشكالية الترجمة وفقه اللغة ؛ "الثوري" (عدن)؛ ١٢ ابريل ١٩٨٩م.
١٠) في المسألة التربوية المطلوب تخليق الوازع لا الذاتي ؛"الثوري" (عدن) ٥ ابريل ١٩٨٩م.
١١) الوحدة اليمنية ؛محاضرة في تلفزيون عدن.
١٢) دور اليمنيين في التوسع الإسلامي ؛محاضرة في تلفزيون عدن؛عام ١٩٨٨م.
١٣) يوم المؤرخ العربي ٢ اكتوبر ١٩٨٩؛ محاضرة في تلفزيون عدن.
ومهما قيل في الدكتور عبد الشافي صديق ؛فإن يبقى احد الرؤوس الخلاقة الكبيرة في عدن .

الشاعر الراحل جيلي عبد الرحمن :

الولد هيثم سيكون فلتة شعرية في اليمن

" الواد الفلتة.. "

هذا الرحيل المباغت لهذا الفتى. كان إحساسي بالفقد فيه طاغيا على شخصي الضعيف. على ذلك لأنني كنت أحد أساتذته في جامعة عدن. وقتها كان فتى غض العود والإرهاب والتجربة. خجولا، حيياً كصبية الملائكة، ساطع البسمة صيفاً وشتاءً. تمسك أنامله ببراع صقيل شفيف، تتهاوى عليه حروف البيان كتهاوي النحيلات الجزلى على الأزاهير الوريفة.

الوقت كان في غرة الثمانينات من القرن المنصرم. والمكان كانت قاعة الدراسة بكلية التربية بجامعة عدن، والمقرر : تاريخ العلوم السياسية.

وذات يوم في القاعة وضع دفتره على طاولتي عندما رجوته أن يجلب لي "طباشير".

مددت يدي للدفتر بحكم عادة المعلم، فالدفتر والكتاب يجذبان المعلم كما ينجذب النمل للسكر.

فرت أصابعي الصفحة الأخيرة، وفيها وقعت عيناي على أبيات من الشعر رصينة، في التو تواثبت لها روحي القصية عن الآل والديار.

سألته : أتكتب الشعر يا هيثم؟ ابتسم في حياء النساك، وضم دفتره بين راحتيه وقال : يعني!! محاولات..

رجوته أن يوافيني ببعض ما يكتب، أطرق ثم ماطلني لأيام ثم أتاني ببعض منه.

كانت نيتي أن أعرض ما يوافيني به على د. جيلي عبد الرحمن أستاذه، وأحد القامات الشعرية السامقة في عالم الشعر السوداني الحديث.

وجيلي عبد الرحمن هو أستاذ هيثم لمادتي : علم الجمال والأدب العربي الحديث. وهو الذي أهداه هيثم قصيدته " هموم الشيخ الجليل " في ديوانه " الحصان ".

في نهاية الأسبوع قصدت د. جيلي في بيته لأطلعه على محاولات هذا الفتى. وفي طريقي إليه لم يبارحني يقيني بأن - جيلي - لابد وأن يكون قد وقف على بعض منها.

وضعت النص بين يديه؛ وبدأ القراءة، وقبل أن يكمل القراءة التفت نحوي قائلاً:- بلكنته السودانية المزوجة بالمصرية " .. أيوه.. الواد ده يازول حايكون فلتة في اليمن."

وصدقت نبوءة د. جيلي عبد الرحمن كصدق الرسل. وشب هيثم شاعراً سرعان ما وقف قائماً على ساقيه كما يقف - فور مولده - على قدميه المهر الأغر.

أخي الموطن .. أختي الموطنة

بتحصين اطفالك ضد الحصبة تكون قد أديت واجبك في حمايتهم من هذا المرض ودرأت بهم عن الأمه ومآسيه

الحملة التكميلية نحو القضاء على مرض الحصبة في الفترة(24-29 نوفمبر 2007م) لجميع الأطفال من (9 أشهر- 15 عاما) في محافظات (عدن - شبوة - مأرب - الجوف - صعدة) بكافة مديرياتها، ،(مديريات إب- الضهار - المشنة) بمحافظة إب ، ومديريتي (ظليمة حبور - ثلا) بمحافظة عمران، ومديرية (بني سعد) بمحافظة المحويت، ومديرية (جيشان) بأبين.